

التحرير والتنوير

ونكر المكان إبهاما له لعدم تعلق الغرض بتعيين نوعه إذ لا يفيد كمالا في المقصود من القصة . وأما التصدي لوصفه بأنه شرقي فالتنبيه على أصل اتخاذ النصارى الشرق قبلة لصلواتهم إذ كان حمل مريم بعيسى في مكان من جهة مشرق الشمس . كما قال ابن عباس : إني لأعلم خلقا لا شيء اتخذت النصارى الشرق قبلة لقوله تعالى (مكانا شرقيا) أي أن ذلك الاستقبال ليس بأمر من الله تعالى . فذكر كون المكان شرقيا نكتة بدیعة من تاريخ الشرائع مع ما فيه من مؤاخاة الفواصل .

واتخاذ الحجاب : جعل شيء يحجب عن الناس . قيل : إنها احتجبت لتغتسل وقيل لتمشط . والروح : الملك لأن تعليق الإرسال به وإضافته إلى ضمير الجلالة دلا على أنه من الملائكة وقد تمثل لها بشرا .

والتمثل : تكلف المماثلة أي أن ذلك الشكل ليس شكل الملك بالأصالة . و (بشرا) حال من ضمير (تمثل) وهو حال على معنى التشبيه البليغ . والبشر : الإنسان . قال تعالى (إني خالق بشرا من طين) أي خالق آدم عليه السلام . والسوي : المستوى أي التام الخلق . وإنما تمثل لها كذلك للتناسب بين كمال الحقيقة وكمال الصورة وللإشارة إلى كمال عصمتها إذ قالت (إني أعود بالرحمن منك إن كنت تقيا) إذ لم يكن في صورته ما يكره لأمثالها لأنها حسبت أنه بشر اختبأ لها ليراودها عن نفسها فبادرته بالتعود منه قبل أن يكلمها مبادرة بالإنكار على ما توهمته من قصده الذي هو المتبادر من أمثاله في مثل تلك الحالة .

وجملة (إني أعود بالرحمن منك) خبرية ولذلك أكدت بحرف التأكيد . والمعنى : أنها أخبرته بأنها جعلت الله معادا لها منه أي جعلت جانب الله ملجأ لها مما هم به . وهذه موعظة له .

وذكرها صفة (الرحمان) دون غيرها من صفات الله لأنها أرادت أن يرحمها الله بدفع من حسبته داعرا عليها .

وقولها (إن كنت تقيا) تذكير له بالموعظة بأن عليه أن يتقي ربه . ومجيء هذا التذكير بصيغة الشرط المؤذن بالشك في تقواه قصد لتهييج خشيته . وكذلك اجتناب فعل الكون الدال على كون التقوى مستقرة فيه . وهذا أبلغ وعظ وتذكير وحث على العمل بتقواه .

والقصر في قوله (إنما أنا رسول ربك) قصر إضافي أي لست بشرا ردا على قولها (إن كنت

تقيا) المقتضى اعتقادها أنه بشر .

وقرأ الجمهور (لأهب) بهمزة المتكلم بعد لام العلة . ومعنى إسناد الهبة إلى نفسه مجاز عقلي لأنه سبب هذه الهبة . وقرأه أبو عمرو وورش عن نافع (ليهب) بياء الغائب أي ليهب ربك لك مع أنها مكتوبة في المصحف بألف . وعندني أن قراءة هؤلاء بالياء بعد اللام إنما هي نطق الهمزة المخففة بعد كسر اللام بصورة نطق الياء .

ومحاورتها الملك محاولة قصدت بها صرفه عما جاء لأجله لأنها علمت أنه مرسل من الأ فآرادت مراجعة ربها في أمر لم تطقه كما راجعه إبراهيم عليه السلام في قوم لوط . وكما راجعه محمد A في فرض خمسين صلاة . ومعنى المحاورة أن ذلك يجر لها ضرا عظيما إذ هي مخطوبة لرجل ولم يبن بها فكيف يتلقى الناس منها الإتيان بولد من غير أب معروف .

وقولها (ولم أك بغيا) تبرئة لنفسها من البغاء بما يقتضيه فعل الكون من تمكن الوصف الذي هو خبر الكون والمقصود منه تأكيد النفي . فمفاد قولها (ولم أك بغيا) غير مفاد قولها (ولم يمسنني بشر) وهو مما زادت به هذه القصة على ما في قصتها في سورة آل عمران لأن قصتها في سورة آل عمران نزلت بعد هذه فصح الاجتزاء في القصة بقولها (ولم يمسنني بشر) .

وقولها (ولم يمسنني بشر) أي لم يبن بي زوج لأنها كانت مخطوبة ومراكنة ليوسف النجار ولكنه لم يبن بها فإذا حملت بولد اتهمها خطيبها وأهلها بالزنى .
وأما قولها (ولم أك بغيا) فهو نفي لأن تكون بغيا من قبل تلك الساعة فلا ترضى بأن ترمى بالبغاء بعد ذلك . فالكلام كناية عن التنزه عن الوصم بالبغاء بقاعدة الاستصحاب . والمعنى : ما كنت بغيا فيما مضى أفأعد بغيا فيما يستقبل .

وللمفسرين في هذا المقام حيرة ذكرها الفخر والطبيبي وفيما ذكرنا مخرج من مأزقها . وليس كلام مريم مسوقا مساق الاستبعاد مثل قول زكريا (أنى يكون لي غلام وكانت امرأتى عاقرا) لاختلاف الحالين لأن حال زكريا حال راغب في حصول الولد وحال مريم حال متشائم منه متبرئ من حصوله .